قضايا أسلوبية بين الموروث العربي والمناهج الغربية الحديثة

أ.د. حسن منديل حسن العكيلي

كلية التربية للبنات / جامعة بغداد

aligeali@Gmail.com

Abstract:

Prop. Dr. Hassan Mandeel Hassan

Dept. of Arabic language – the College of Education for Women

Baghdad University

This research deals with two topice of the modern stylistic topics among.It attempts to give answers on them .the contemporary Arab scholars

The first topic: The application of modern western stylistics on the Quraanic text.

The second topic: The roots of stylistics in the Arabic rhetoric history.

المقدمة:

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد...

فالبحث يتناول بعض القضايا الأسلوبية المعاصرة لدى الدارسين العرب المعاصرين، ويحاول الاجابة عنها. كقضية: جذور الأسلوبية في الموروث البلاغي العربي. وقضية العدول بين القدامى والمعاصرين. ويقترح أسلوبية جديدة تراعي خصوصية النص العربي الاسلامي وتنسجم معه تطبيقا وتحليلا.

ويرى الباحث : أنّ أوضح جهود للقدامى يمكن عدّها اسلوبية تنسجم مع دراسة النصّ العربي الإسلامي وتحليله تحليلا اسلوبيا معاصرا مؤسسا على خصوصية النص العربي الاسلامي الذي ينأى عن النصوص الغربية وانظمتها اللغوية، تتجلى في جهود علماء إعجاز القرآن الكريم

القدامى، وتطبيق الزمخشري علم المعاني في تفسيره (الكشاف) الذي يستنبط الدلالة من كل مكونات النص. يمكن تسميتها بالاسلوبية العربية الاسلامية، وهي أسلوبية قائمة على النصّ الإسلامي: القرآن الكريم والأدب الإسلامي المؤسس على العقيدة الإسلامية وما تتضمنه من تصور للوجود[1]. تقابل الاسلوبية الغربية المستقاة من آدابهم ومعتقداتهم وفلسفاتهم وثقافاتهم وأنظمة لغاتهم الغربية.

ويرى الباحث أيضا أن أهم مّنْ طبّق المناهج الغربية الحديثة من الدارسين العرب المعاصرين، الدكتور تمّام حسّان إذ مزج بين المناهج الغربية الحديثة، وبين الموروثين: البلاغي والنحوي، وكان الدكتور تمام أقرب إلى الموروث العربي منه الى المناهج الغربية الحديثة التي خبرها أسلوباً وعرضاً. ففي كتابه (البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني)[25] طبق آراءه اللغوية ونظرياته التي ذكرها في كتبه السابقة ومنها : نظرية تضافر القرائن التي فسّر في ضوئها الرخصة والعدول الأسلوبي بعد نضوجها. واتسم بكثرة الشواهد القرآنية لكل ظاهرة أسلوبية او لغوية

تمهيد:

هل تصلح أطروحات علم اللغة الحديث ومناهجه ونظرياته من حداثة وما بعد الحداثة والأسلوبية الحديثة وعلم النص والمناهج النقدية الحديثة... درساً وتحليلاً وتطبيقاً على النصّ القرآني كما هي من غير اعتبار لخصوصية اللغة العربية والنصّ القرآني ونظامها الذي ينأى عن أنظمة اللغات الغربية ولاسيما الإنجليزية والفرنسية وغيرهما مما كانت ميداناً ومرتكزاً وتطبيقاً للنظريات اللسانية.

إن مناهج الدراسات اللسانية والنقدية والأسلوبية الحديثة كثيرة ومتشعبة لا يمكن الإحاطة الكاملة بها وبتفاصيلها ودقائقها[3] أو تطبيقها كما هي تطبيقا تقليدياً على النصوص الإبداعية العربية والنص القرآني، وليس من وكدنا ذلك بقدر الإطلاع عليها وفهمها والاستفادة مما يصلح منها لدراسة النص العربي ولاسيما النص القرآني، وانتخاب ما ينسجم تطبيقه عليه من

نظريات الأسلوبية العامة ومناهجها لكونها تطبيقاً ألسنياً على الأدب أو اللغة الإبداعية. والنص القرآني أعلى نص عربي.

إذن ثمة مشكل في التناول الأسلوبي ومحاذير ينبغي الوقوف عليها. فضلاً عن علمانية الأسلوبية وارتباطها بالفكر الغربي المادي أو الديني على وفق العقيدة المسيحية او العلمانية ، التي تتقاطع مع الجانب الروحي للنصّ القرآني والنظرة القدسية له وللغة العربية. والنقد العربي الحديث متأثر بالنقد الغربي ومتابع له ومتطفل عليه ولاسيما بالفلسفات المادية، على الرغم من تراثه الغني المبني على النصّ القرآني خاصة. والنقد الغربي الحديث مبني على نصوص الأدب العالمي كجان جاك روسو وغيره وعلى إحياء أساطير تبناها الأدب المعاصر فإذا كان التقاؤهم في الأدب الإنساني والتجربة الإبداعية للأديب ، لكنهم لا يلتقون بالرؤية الى النص القرآني وخصوصيته وارتباطه باللغة العربية ونظامها المحكم الذي يختلف عن أنظمة اللغات الأخرى. النصّ المرتبط بالخالق عزّ وجل (المرسل) وبالجانب الروحي لدى (المتلقي) و(الرسالة) المنقولة من الغيب.

"ورغبة من النقد العربي المعاصر في مواكبة الاتجاهات النقدية العالمية الحديثة، حاول ترجمة هذه الدراسات النظرية، وقليلاً ما قام بتطبيقها بالصورة السليمة والموضوعية على النصّ العربي ، ومن هنا برزت مشكلة التنافر وعدم التآلف – في اغلب الأحيان- بين المادة المترجمة والإبداع العربي ، بين المنهج الغربي وأدبنا في مختلف البلدان العربية[4]. ويبدو أن جل الدارسين العرب ينظرون للفكر الغربي في اللغة والنقد نظرة إعجاب وإكبار لما شهده الغرب من تطور في الميادين العلمية المختلفة. وهذا قد لا ينطبق على علوم اللغة فالموروث اللغوي والبلاغي والنقدي العربي لا يقل أهمية عما يقدمه الغربيون المعاصرون.

المبحث الأول:

الأسلوب والأسلوبية:

تنوع مفهوم الاسلوب بحسب المناهج المختلفة واللغويين وكبار النقاد وبحسب التأثر بالفلسفات والعلوم: علم النفس ، الألسنية ، النقد ، علم الجمال، علم الاجتماع، علم النفس وغيرها. وبحسب المخاطِب والمخاطَب والخطاب[5].

وتنوع المفهوم العصري لعلم الاسلوب فشمل كل ما يتعلق باللغة من أصوات وصيغ وكلمات ، وتراكيب ، وتداخل مع علم الأصوات والصرف والدلالات والتراكيب والألفاظ. للإبانة عن الخواطر والانفعالات والصور وبلوغ أقصى درجات التأثير الفن [6]. وبعضهم يرى: أن الاسلوب خارج عن مستويات اللغة الصوتي والصرفي والنحوي أي الشكل وهو ظاهرة ذات أصل فردي[7].

وثمة تعاريف أخرى كثيرة لم تسلم من نقد وغموض وتقاطع[8]: ولسنا ملزمين بها كلها او احدها بل بحسب الموضوع والهدف وخصوصية النص الذي ندرسه. قال باحث معاصر: "إن الاسلوب مفهوم عائم ، فهو وجه بسيط للملفوظ تارة ، وهو فن واع من فنون الكاتب تارة أخرى. وهو تعبير عن طبيعة الإنسان تارة ثالثة ، لذا فهو يتعدى دائماً الحدود التي يدعى بأنه انغلق عليها..."[9].

وقال آخر: "لا يمكن هنا الادعاء بوجود مفهوم واحد للاسلوب كما لا يمكن القول بوجود طريقة واحدة لدراسته بل إن التعدد كائن في لبنية المفهومية ، كما هو كائن في القراءات التحليلية ، ولعل ذلك راجع الى تعدد المداخل نفسها إذ هي تتكئ أحيانا على الجانب العاطفي ، وعلى الجانب العقلي أحياناً ، وتبتعد عن هذا وذاك أحياناً ثالثة لتبدأ من منطقة محايدة ..."[10].

ولكثرة تعريفات الأسلوب والأسلوبية هجر بعضهم هذا الاصطلاح. وأنكر جراي شيئاً اسمه الاسلوب ذلك أنها كلمة (تطلق في حقيقة الأمر على شيء بلا صفات خاصة ، لم يتم دليل ما على وجوده مطلقاً وإنما نسب إليه خواص تنتمي الى نظم أخرى مما جعل هذه الخواص

المزعومة تتراكم وتتناقض...". ويرى "فكرة الاسلوب نفسها عائقاً في سبيل التقدم العلمي في فهم الأدب ونقده إذ لا يمكن التدليل المعملي على وجوده ولإقامة البرهان العلمي على جدواه"[11].

ويرى بعضهم الاسلوب زينة وجملة محسنات بديعية من جناسات وطباقات وما شابه ولاسيما لدى القدامى[12].

الأسلوبية: Stylistique

الأسلوبية علم حديث تأسست قواعدها لدى بالي سنة 1902 مستفيداً من استاذه سوسير الذي أرسى الألسنية الحديثة[13]. فالاسلوبية الأولى لسانية عند بالي ثم تطورت واتجهت اتجاهات مختلفة ، ثم أصبحت تعني الانزياح لكنهم لم يتفقوا على معيار يقيسون عليه الانزياح[14].

في مطلع القرن العشرين ولدت تحت كلمة الاسلوبية مفهومان مختلفان:

الأول: دراسة الصلة بين الشكل والفكرة ، خاصة في الخطاب لدى القدماء.

الثاني: الطريقة الفردية في الاسلوب او دراسة النقد الاسلوبي ، وهي تتمثل في بحث الصلاة التي تربط بين التعبيرات الفردية او الجماعية[15].

"إن التناول الاسلوبي انما ينصبّ على اللغة الأدبية ، لأنها تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء بما فيه من وعي واختيار وبما فيه من انحراف عن المستوى العادي المألوف بخلاف اللغة العادية التي تتميز بالتلقائية والتي يتبادلها الأفراد بشكل دائم وغير متميز".

"فعلم اللغة يدرس ما يقال ، والاسلوبية تدرس كيفية ما يقال مستخدمة الوصف والتحليل في آن واحد"[16].

ولكون الأسلوبية علماً حديثاً ما يزال يتطور لم تكتمل بعد ولوجوهها العديدة وعدم استقرارها وعلمانيتها ، كثرت تعريفاتها كما تعددت تعاريف الاسلوب وتقاطعت.

ويبدو ان الجامع بين تعاريف الاسلوب والاسلوبية ومفاهيمهما انهما اختيار وتوزيع والعدول عن المألوف سواء في البنى والتراكيب والأصوات او في الدلالة، والاهتمام بالتحليل الفني للنصّ.

فالأسلوبية "بحث علمي للطرائق المستعملة في التعبير عن الخواطر، وعلم الاسلوب يرشدنا الى اختيار ما يجب أخذه من اللغة للتوصل الى التأثير في المتلقي شريطة احترام قواعد اللغة"[17].

"تبحث الاسلوبية عن الخصائص الفنية الجمالية التي تميّز النصّ عن آخر ، او الكاتب عن كاتب آخر ، من خلال اللغة التي يحملها خلجات نفسه وخواطر وجدانه"[18] وتحاول الاسلوبية الإجابة عن كيف يكتب الكاتب نصّاً من خلال اللغة؟ إذ بها ومنها يتأتى للقارئ استحسان النص او استهجانه.

و"تنفي (الاسلوبية) عن نفسها المعيارية وإرسال الأحكام التقيمية بالقبول او بالرفض يضاف الى ذلك أنها لا تسعى الى غاية تعليمية البتة ، ناهيك عن حرصها الشديد على تعليل الظواهر الاسلوبية في مقارباتها النصوص الإبداعية بشيء من العلمية الوصفية ، على النقيض مما تعاملت به البلاغة"[19].

و لم تسلم الاسلوبية من الانتقادات كما لم يسلم (الاسلوب) فمن الملاحظ التي يمكن ان تلاحظ على الاسلوبية ان الاسلوبيين حدّدوا عملها باللغة الإبداعية وتأثيرها بالمتلقي لا اللغة النفعية التواصلية ، لكنّ اسلوبية بالي (رائد الاسلوبية المعاصرة) التي تسمى بالتعبيرية حدّدها باللغة اليومية الشائعة (النفعية).

وعلى الرغم من ان الاسلوبية تعنى بالتأثيرات الجمالية ، وتناولها اللغة الإبداعية فان بعض مناهجها تعتمد طرقاً لحساب التكرار النسبي بغية الدقة العلمية واستخدام الحسابات الالكترونية لرسم جداول التكرار للسمات التي يقال عنها انها تصف أسلوباً مميزاً[20] مغفلاً وظائف المفردات النحوية في سياقها[21] وهو أمر وان كان علمياً إلا انه يتقاطع مع الجمالية في أحيان كثيرة[22]. واستعمال الجداول الرياضية للجرد الاسلوبي وهو إحصاء الأنماط وقياسية في النصّ

واعتمادها على التحليل الوصفي للغة ، ثم على النحو التحويلي والبنـــاء الســـطحي والبنـــاء العميق[23].

كثير من الدارسين عارضوا الاسلوبية والنظريات النقدية المختلفة التي تتبناها ذلـــك "بانهـــا صيغت في بيئات وظروف حضارية مباينة كل المباينة لما نحن عليه ، وبأن الحاطبين في حبالهـــا ينقلونها الى ثقافتنا غريبة الوجه واللسان ويجعلون من النص العربي قرباناً يسترضون بـــه هـــذه الصراعات المتلاحقة في بلاد الغرب[24].

فضلاً عن الإسراف باستعمال المصطلحات الرنانة هدفاً لدى بعضهم ولاسيما الأدباء والنقاد والشعراء غير الاكاديميين الذين بنوا ثقافاتهم على الصحف والمجـــلات لا التخصـــص الـــدقيق الاكاديمي وسعة الإطلاع بالموروث العربي الإسلامي.

"النقد الأهم الذي يوجه الى الاسلوبية يتمثل في عدم عدّها علماً لأنها لم تـــنجح في حصـــر موضوعاتها ولا مناهجها ، من جهة ثانية انتزع تطور اللسانية الاسلوبية من بعـــض مجالاتهـــا الأصلية محدثاً بذلك إعادة توزيع لجميع الأعمال التي وضعت حتى الآن بأنها اسلوبية في مجالات جديدة... وقد وصل الأمر الى درجة ان اريفي Arrive أعلن موتها"[25].

المبحث الثاني:

جذور الأسلوبية في الموروث البلاغي العربي : يرى كثير من الدارسين العرب للأسلوبية الغربية جذوراً وأصولاً في الموروث العربي: البلاغي والنحوي والأدبي والنقدي وفي كتب الإعجاز التي تناولت النصّ القرآني وإعجازه[26] وكتب اللغة والبيان والبلاغة والنقد كابن المقفع والجـــاحظ والمبرد وابن المعتز وعبد القاهر وقدامة بن جعفر والآمدي والقاضي الجرجـــاني ابـــن طباطبـــا العلوي والسكاكي وابن خلدون والسبكي والتفتزاني وغيرهم.

قال الدكتور عياد: "إن الأسلوب يكون أكثر تحديداً لدى النقاد المغاربة: حازم القرطـــاجني 684 هـــ في منهاج البلغاء وابن خلدون في مقدمته 808هـــ[27].

وقال باحث آخر: "نظرت في البلاغة العربية عند القدماء، فوجدت ان قضايا كثيرة عرضوا لها بأسماء مختلفة عن قواعد الأسلوبية الحديثة ونظرية السياق في العصر الحاضر"[28] وقال آخر "علم الأسلوب ليس غريباً عن البيئة العربية ولاسيما في القرنين الثالث والرابع الهجريين[29].

وأوضح صلة بينهما تبدو أنهما يقومان على دراسة العدول عن المعايير اللغوية أو الانزياح كما في اصطلاح المعاصرين دراسة فنية، وشبّهوا قول البلاغيين بـ (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) وقولهم (لكل مقامٍ مقال)[30] بفكرة بالي حول مسألة علاقة الأشكال اللغوية بالفكر[31].

ويرون أن الأسلوبية وريثة البلاغة وعلم لغة النص، وهو قول الغربيين ايضاً[32] ولا اعرف كيف يوفقون بين معيارية البلاغة القديمة وعلمية الأسلوبية وتفلتها من المعيارية فضلاً عن أنهم ينسبون لكل ناقد قديم او بلاغي فهماً خاصاً للأسلوب والأسلوبية فابن طباطبا ربط مفهوم الاسلوب بصفة مناسبة الكلام بعضه لبعض وعبد القاهر بتوخي معاني النحو وابن خلدون بجعله "الاسلوب صورة ذهنية مهمتها مطابقة التراكيب المنتظمة على التركيب الخاص لأن الصناعة الشعرية هي بمعنى الاسلوب ترجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص"[33].

وجلّهم يعد النظم الذي قال به عبد القاهر هو الاسلوب ، لذا رأى بعضهم ان عبد القاهر مؤسس الاسلوبية العربية ، وتناولوا البلاغة القديمة بأسماء جديدة ، من خلال مشابهة شكلية وتناول تقليدي ، او خلط بين المصطلحات القديمة والحديثة[34].

وقارنوا بين عبد القاهر وسوسير وتشومسكي وبالي وكروتشة وغيرهم وعدّوه السبّاق عليهم[35].

ورأى الدكتور لطفي عبد البديع ذلك تلفيقاً ، قال ساخراً: "يضع قبعة هذا على رأس ذاك ويثبت عمامة ذاك على رأس هذا ، ويقول للاول: كن كروتشة ، وللثاني: وانت عبد القاهر"[36].

الأسلوبية العربية الإسلامية: إنّ أوضح جهود القدامى يمكن عدّها اسلوبية تنسجم مع دراسة النصّ العربي الإسلامي، يمكن تسميتها بالاسلوبية العربية الاسلامية ولاسيما لدى علماء إعجاز القرآن فقد استعملوا مصطلح (الاسلوب) في بحوثهم حول إعجاز القرآن ويدل لديهم: "على الطرق المختلفة في استعمال اللغة على وجه يقصد به التأثير"[37]، كما لدى الخطابي والباقلاني وابن قتيبة وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم[38]. ويبدو ان القدامى يقصدون بالاسلوب ما يخرج عن اللغة المألوفة ، وما سموه بطرائق العرب ومجازاتهم واساليبهم في الكلام.

وخير من وظّف مباحث إعجاز القرآن وعلم المعاني وطبقها على النصّ القرآني كله الزمخشري (538هـ) فقد ابتكر طريقة جديدة في تفسير النص القرآني لم يسبق اليها[39] أسسها على علمي المعاني والبيان وتبعه مفسرون كثيرون ومايزال المعاصرون يحذون حذوها في الدراسات الاسلوبية القرآنية[40].

"ارتبط استعمال القدماء لكلمة الاسلوب بمفهوم الكلام الإلهي ومقارنته بالكلام البشري. كما ارتبط بإدراكهم لوجود جانبين للاسلوب ، احدهما خفي ملموس ، والآخر متجسد في الصياغة اللغوية"[41].

فهي أسلوبية قائمة على النصّ الإسلامي، القرآن والأدب الإسلامي المتأسس على العقيدة الإسلامية وما تتضمنه من تصور للوجود[42]. تقابل الاسلوبية الغربية المستقاة من أدبهم ومعتقداتهم وفلسفاتهم وثقافاتهم ولغاتهم الغربية.

فالأدب الإسلامي "نابع من بيئة ثقافية مغايرة بل معادية لأسس الصياغة الثقافية الغربية المعاصرة التي ترفض الأديان أساساً او تكرس لأخرى. فهو أدب يقوم على مواجهة آداب عبثية او وجودية او آداب مسيحية او يهودية صهيونية ، وكل المذاهب الأدبية تصدر عن بيئات ثقافية وأيدلوجية محددة"[43].

ويصاحب هذا الأدب الإسلامي نقد إسلامي ينطلق من الأسس نفسها: (العقيدة الإسلامية وتصورها للوجود) وترسيخها وإشاعتها وتعد ما يخالف تلك التصورات[44].

لقد دعا الشيخ أبو الحسن الندوي في المجمع العلمي بدمشق الى إقامة أدب إسلامي ، ثم جاءت كتابات سيد قطب- رحمه الله- في هذا الاتجاه ، وتلاه الأستاذ محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي) ، ثم كتاب نجيب الكيلاني: (مدخل الى الأدب الإسلامي) ، ثم الدكتور عماد الدين خليل خطا خطوة في هذا الطريق بكتابه: (النقد الإسلامي المعاصر) وغيرهم. وقد أخذوا على الأدب المعاصر اتخاذ الغموض غاية ، ودعوا الى الالتزام الإسلامي والعقيدة الإسلامية التي تستند الى الوضوح لا الغموض المضلل والعبث او اللهو والزينة والتفاخر كما وصفوا الأدب المعاصر[45].

الأسلوبية الإسلامية خاصة بتحليل النصّ القرآني ذوقياً وتدبره ومعالجته معالجة فنية واستنباط المعاني العالية والبليغة الإيحائية وظلال المعاني او القيم التعبيرية او اللمسات الفنية والأسرار البيانية في النصّ الإسلامي تستنبط من كل أجزاء النصّ: تركيبه وترتيبه، وأصواته وحركاته ومباني كلماته فواصله ، التذكير والتأنيث ، التعريف والتنكير وغيرها.

يقول صبحي الصالح: "فحين تسمع همس السين المكررة تكاد تستشيف نعومة ظلّها ، مثلما تستريح الى خفة وقعها في قوله تعالى: (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) (سورة التكوير15-18) ، بينما تقع الرهبة في صدرك وأنت تسمع لاهثاً مكروباً صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة (تحيد) بدلاً من تنحرف او تبتعد في قوله: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) (سورة قّ:19) [46].

إنّ في أسلوب القرآن دلالات بلاغية وأسراراً بيانية تستنبط من مكونات النص ومن النص كله من خلال المقارنة بين التراكيب المتباعدة ونظامه المتماسك. ومن خلال الإحصاءات ودقة الملاحظة يستشفها الدارس البلاغي او الاسلوبي. كحذف اداة النداء وإظهارها في النص القرآني كله يشير الى التمييز بين الخالق والعبد، فإذا كان النداء موجهاً من العبد الى الخالق تبارك وتعالى يرد النداء بحذف أداة النداء و العكس كنداء زكريا عليه السلام ربّه سبحانه وتعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

(سورة مريم5) ونداء الخالق عزّ وجلّ عبده: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً) (سورة مريم:7) (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً) (سورة مريم:12) [47].

ومن الدلالات الاسلوبية التي تستشف من النص كله مثلا: طغيان أسلوب الطلب في سورة مريم بصيغه المتعددة ، ذلك ان الأحداث التي تناولتها تحتاج الى هذا الاسلوب الخطابي لغرض التوضيح والبيان ، بسبب المباشرة في القول. وقلة ورود الصور البيانية كالمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه في سورة مريم يؤكد هذا المعنى الدقيق الذي يستنبطه الدارس من الملاحظة الدقيقة للنصّ القرآني ، ومنها غلبة اسلوب التوكيد في سورة مريم تشير على حاجة الأحداث التي تناولتها لاستقرارها في ذهن المتلقي[48].

وهي تنأى عن تحليل الأدب العربي الذي يمكن تطبيق أطروحات كثيرة من الأسلوبية الغربية عليه ، وان اختلفت في اعتمادها على أمهات مصادر التراث العربي في تشكيل الذائقة والمعرفة الأدبيتين ، والمناخ الذي تنتمي إليه ، كعمود الشعر الذي وضعه المرزوقي ليعلم الفرق بين المصنوع والمطبوع مما أطلقوا عليه بـ (المعتمد في الثقافة العربية)[49] وكالمختارات الشهيرة: الحماسة والمفضليات والموسوعات الأدبية وكتابات ابن المقفع وعبد الحميد وبديع الزمان وابي حيان التوحيدي وغيرهم.

وهذا يختلف عن النص القرآني وشروط تفسيره وقدسيته ودوافع تناوله و شخصية متناوليه وثقافتهم الروحية وذائقتهم الخاصة.

ان المنهج الفني الذوقي يختلف عن المنهج الانطباعي الذي يقوم على الانفعال وربما على المغالاة والابتعاد عن الموضوعية وأسس العلم.

هذه الاسلوبية الإسلامية اصل البلاغة العربية التي نشأت من خلال الدفاع عن النصّ القرآني والإعجاز خاصة وإثباته الذي تناوله عبد القاهر في كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، وإجماعهم على ان إعجاز القرآن في نظمه واسلوبه. إلاّ أنّ المتأخرين نهجوا منهجا معياريا

وصاغوا "قواعد صارمة صيغت باسلوب عقيم"[50] وما نقرأه في كتب البلاغة المدرسية المعيارية فضلاً عن الخلط في مباحثها: نحو ولغة وبلاغة وأدب.

وقد ميّز الباحثون بين البلاغة الذوقية والبلاغة المنطقية المعيارية وسمّاها بعضهم بالبلاغة القاعدية والبلاغة القيمية. والأولى هي التي تتحدث عن مواطن الشاهد البلاغي... والثانية "ما يحمل الشاهد من معانٍ وطاقات وقيم تؤدي الى جماليات فنون القول العربي وتكشف عن الإعجاز القرآني.."[51] .

ولا يكشف هذه الملامح الاسلوبية إلا من لديه الموهبة الأصيلة وليس المكتسبة ، وإنْ كان بعض الدارسين خلط بين دلالة الصيغ والدلالة المعجمية كقول احدهم ان كثرة ورود الفعل المعتل في النصّ تدل على اعتلال المبدع النفسي والفعل الأجوف على تأزمه[52].

وقد توصّل الخوسكي في دراسته (الجملة الفعلية في شعر المتنبي)[53] الى أنّ استعمال الفعل المضارع نادر في مرثيات المتنبي، أما الفعل الماضي فكثير الورود وعلل ذلك بأنه يشير الى أن في الماضي انقطاع، وفي الانقطاع ألم وندم و حسرة ولوعة وحزن ويأس...وعليه نقل المراثي بزمن الحال أو الاستقبال لأن الموقف يتطلبها والغرض يقتضيها.

ورأى تامر سلوم في تحليله شعر ذي الرمة بأنه عبّر بالفعل المضارع في مثل: أبكي ، أخاطبه ، أسقيه وغيرها أفعال تفيد التجدد في البكاء والمناجاة والشكوى ، وانها توحي بالاستمرار الشعوري لهذا الحدث او هو يوميء الى ما يصاحب التجدد من حالات وجداني. فالفعل المضارع يعطي الموقع الوجداني للظاهرة المتجددة ومن ثم فهو ينقلنا من البكاء والمناجاة الى العزلة النفسية والغربة والانفراد[54].

والذي نعنى به من الاسلوبية الحديثة، عنايتها بالخصائص الفنية والملامح الدلالية الدقيقة التي أطلق عليها القدامى أسراراً بيانية ، تستنبط من خلال تدبر النصّ وطريقة نظمه ومباني ألفاظه ، مركزين على تفسير العدول في ضوء ذلك ، ناهيك عن ان العدول من أهم ميادين الاسلوبية الحديثة. لكنا نحاول تفسيره في ضوء نظام اللغة العربية ، وهو تناول أقرب الى مفاهيم الاسلوبية وعلم لغة النصّ الذين يتداخلان كثيراً.

المبحث الثالث:

ظاهرة العدول بين القدامى والمعاصرين: إنّ الأسلوبيين يعدّون العدول بكل أنواعه، خرقاً وانتهاكاً وانزياحاً وانحراقاً عن مقاييس اللغة، وقوة ضاغطة على حساسية القارئ، وحدة المفاجأة عليه ومنبهات اسلوبية وغير ذلك من الإصطلاحات(55). ويرون: كلما كان الانزياح او الانحراف بعيداً كان أعلى بلاغة وأكثر عاطفة وإثارة وإبداعا وفناً. وهذا ردّ على طعن بعض المستشرقين المتحاملين غير المنصفين في النص القرآني الذين اتخذوا من العدول في لغته هدفاً لطعنهم وتشكيكهم بإعجاز القرآن كما مرّ بنا. وهو ردّ علمي من خلال أقوال اللغويين الغربيين أنفسهم وليس ردّاً عاطفياً انفعالياً كردّ بعض المسلمين(56).

وقد اقتبس البلاغيون أصلاً نموذجاً (معياراً) ، من المنهج النحوي يقيسون عليه العدول، وهو أن الأصل في كل جملة أن يكون لها ركنان أساسيان: (مسند ومسند إليه)، والأصل فيهما أن يكونا مذكورين ظاهرين لا محذوفين ولا مضمرين. وأخذوا بأصول متعلقة بالرتبة مثل: الأصل في الكلام ، الرتبة المحفوظة...والأصل في المسند إليه أن يتقدم والمسند أن يتأخر. وأصل الجملة الاسمية الثبوت والجملة الفعلية التجدد وهلم جرّا. أطلقوا عليه: (الاستعمال الأصولي) و(أصل الوضع) و (مقتضى الظاهر) وغير ذلك. وأطلقوا على الخروج عليه: (العدول عن اصل القاعدة أو اصل الوضع) (57).

يرى الدكتور تمام حسّان: انّ الالتزام بهذا (الأصل) كان أصولياً يعتمد على القرائن. وربما لدواعٍ أدبية وذوقية ونفسية، ولإحداث تأثير معين يعدل عن الأصل فيصير (اسلوباً أدبياً) ذا تأثير. وهو عدول مقبول مستحب وذلك لأمن اللبس بتضافر القرائن وهي عنده: قرينة البنية ، وقرينة الرتبة ، والربط ، والتضام ، والإعراب ، والمطابقة ، والأداة ، والنغمة. حيث يسمح الترّخص في إحداها أو أكثر إذا امن اللبس بتضافر القرائن الأخرى.

إنّ من أهم مّنْ طبّق المناهج الغربية الحديثة ومنها علم النص الدكتور تمام حسان إذ مزج بينها وبين الموروث البلاغي والنحوي، وكان الدكتور تمام إلى الموروث أقرب من المناهج الغربية التي خبرها أسلوباً وعرضاً. ففي كتابه (البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبية

للنص القرآني)[58] طبق آراءه اللغوية ونظرياته التي ذكرها في كتبه السابقة ومنها : نظرية تضافر القرائن التي فسّر في ضوئها الرخصة والعدول الأسلوبي بعد نضوجها. واتسم بكثرة الشواهد القرآنية لكل ظاهرة أسلوبية او لغوية.

وقد رأيته يمزج بين التحليل الأسلوبي و النحو المعياري، ويكثر من اعتماده على نحو المتأخرين الممزوج بالمنطق العقلي لا اللغوي ولاسيما لدى أبي البركات الأنباري ، فمن ظواهر التضام التي ذكرها "اغناء أحد العنصرين عن الأخر" مثل لها بأقوال النحاة نحو (اغناء الفتحة عن الكسرة في إعراب ما لا ينصرف وعكسه في جمع المؤنث السالم) و(واغناء (يا) النداء عن الفعل (أدعو) و (اغناء العوض عن المعوض في كل صور التعويض)[59]. وفي المظهر التضامي الذي وسمه باسم ((الشروط التركيبية التي تتضح بتحقيقها خصوصية السياق ومعناه التركيبي)) ثم ذكر تحته قائمة طويلة من القواعد النحوية المعيارية التي وضعها النحاة المتأخرون[60] ناهيك عن استشهاده بشواهد قرآنية للظواهر اللغوية والأسلوبية التي يذكرها بحسب ما يرى بعض المفسرين لمعنى الشاهد القرآني او ما يراه هو. وقد ذكرنا ان المعنى القرآني متحرك وله خصوصية أسلوبية مغايرة عن الأساليب الأخرى بحيث تسمح للمفسرين أن يحملوه على وجوه في بعض شواهده. وبعضها الآخر من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى على خلاف في ذلك.

ويرى تمام حسان انه يجوز الترخّص في الإعراب بعدم مراعاته، وذلك للوصول بالرخصة الى غرض اسلوبي عدولي ما... وعلل ذلك بأنه يمكن خرق الإعراب لتضافر قرائن بيان المعنى زائدة عن المطلوب أحياناً فإذا زاد الإعراب عن مطالب بيان المعنى كما في (خرق الثوبُ المسمارَ) ونحوه أمكن الترخص في الإعراب ، وقولهم: (هذا جحرُ ضبٍ خربٍ)[61]. وهي شواهد محددة اجترها النحاة في كتب النحو واللغة والبلاغة مشكوك في نسبتها، تختلف عن خرق الإعراب الوارد في النصّ القرآني وأغراضه الدلالية الدقيقة والجمالية.

استشهد للترخص في بعض الشواهد القرآنية:

(لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً) (سورة النساء:162).

وقال في (والمقيمين الصلاة): "تحفُّ به المرفوعات من أمامه ووورائه والعلاقة بينه وبين هذه المرفوعات علاقة العطف بقرينة الواو. وإذا إتّضح العطف بقرينة غير الإعراب أمكن الترخص في الإعراب كما نراه واضحاً هنا"[62].

إن فكرة أمن اللبس غير كافية لتفسير خرق الإعراب في النصّ القرآني ، ذلك بعضه ورد في آيات مشكلة المعنى اختلف فيها المفسرون تتقاطع مع شروط الدكتور تمام حسان للرخصة في أي قرينة ، لا يتوقف عليها المعنى او أمن اللبس ومنها قرينة الإعراب.

وقد أخذ فكرة أمن اللبس من النحاة الذين قيّدوا قواعدهم بأمن اللبس واشترطوه لصحتها وعدّوه أصلاً أساساً في وضع القواعد ، فأوجبوا البقاء على الأصل في القاعدة النحوية إذا خشي اللبس وجواز الخروج عنه إذا أمن اللبس[63]. وهي فكرة منطقية تخالف واقع اللغة ونظامها الذي يسمح بهذا الخرق من خلال حمل الكلام بعضه على بعض او يبدو خرقاً بحسب المعيار النحوي التقليدي .

فقد ذهب بعضهم الى أن (المقيمين) نصِبت عطفاً على المعنى و لا أرى ذلك. وإنما هو اسلوب النصب على المدح وسمّوه قطع التابع عن متبوعه ، ويجوز الرفع على الابتداء، والنصب بأعني او امدح او أذم بحسب المعنى. وقالوا يجوز عند النعوت إذا طالت ان يعترضوا بينها بالمدح او الذم[64]. وكذلك عند العطف وقد ورد هذا الاسلوب في النص القرآني في غير التوابع ومن غير إطالة ، كقوله تعالى: (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) (سورة المسد:4) نصب (حمالة) على الشتم والذم وهو ضرب من الإيجاز.

إنّ الدراسات القرآنية الأولى كانت تفسّر العدول في النص القرآني على انه من أساليب العرب ومجازاتها وسننها وطرائقها في كلامها الذي نزل القرآن بها ذلك أنهم فهموا من التحدي

الذي وجهه القران الكريم للعرب أن لغة القران هي لغة العرب نفسها من غير اختلاف وهو استدلال منطقي ، فكانوا يقارنون بينه وبين الشعر القديم الذي لم يسلم من الوضع إلاّ نادراً.

إنّ لغة القران مبنية على نظام خاص بها ، نظام استعمالي واحد منتشر في كل مستوياتها : الصرفي والنحوي والبلاغي وغيرها. يزيدها ترابطاً وتماسكاً بين مكوناتها اللفظية وبين دلالاتها من جهات مختلفة ، من خلال انسياقها في ضوء نظام واحد متجانس متعلق بعضه برقاب بعض ، وأقصد بالواحد إنّ النظام الصرفي يشبه النظام النحوي وكلاهما يشبهان النظام البلاغي وهكذا كل أنظمة مكونات لغة القران يحكمها(نظام المشابهة) ويربطها النظام نفسه ويشد بعضها الى بعض، وهذا سبب روعة أسلوب القرآن وجماله وتماسكه وعذوبة نغماته وترابط دلالاته مما بهر السامعين ولا سيما المتذوقين.

ليس العدول خروجاً عن الأصول الافتراضية والمعايير النحوية واللغوية التي وضعها النحاة واللغويين، إنما هو داخل ضمن اطار النظام التركيبي للعربية، وإنّ كثيراً مما قالوا بأنه عدول يرد في اللغة المألوفة العادية وان استنبطوا منه ملامح فنية اسلوبية ومعاني ثانية ، لكنه في تراكيب مستقيمة نحوياً سليمة وان أحدثت صوراً وكنايات وتشبيهات وخيالات او ما نسميه بالعدول الدلالي (الانزياح) لدى المعاصرين.

الخاتمة:

- إن للعدول عن المعايير اللغوية وجهاً بلاغياً لمح فيه بعض البلاغيين أسراراً بيانية وتناولوه تناولاً ذوقياً فنياً كالزمخشري الذي كان رائداً في تطبيق علمي المعاني والبيان ونظرية النظم على النص القرآني كله ، وقد تبعه كثير من البلاغيين ومنهم المعاصرون كسيد قطب ومصطفى صادق الرافعي وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).

- أخذت على التطبيقات الأسلوبية المنجزة على النص القرآني لدى بعض الدارسين العرب المعاصرين ، مآخذ منها عدم اعتبارهم لخصوصية النّص القرآني من حيث المرسل والمتلقي والرسالة التي تمتاز بأنها رسالة مفتوحة بمعناها المتحرك فوق المؤثرات الزمانية والمكانية. وعدم

مراعاتهم نظام لغته الذي ينأى عن أنظمة اللغات الغربية كالانجليزية والفرنسية وغيرهمـــا ممـــا كانت ميداناً تطبيقاً للأسلوبية المعاصرة الغربية. وارتباطها بالفكر الغربي المادي.

- ركزت على ما له صلة بالألسنية من مناهج الأسلوبية المتشعبة، ولاسيما المنهج الذي يستنبط الدلالة من كل مكونات النّص: الصوتي والصرفي والتركيبي والدلالي.

- ميزت بين الأسلوبية الغربية المعاصرة والأسلوبية العربية الإسلامية المرتبطة بـــالنص القـــرآني وبالآدب والنقد الإسلاميين المؤسسين على العقيدة الإسلامية.

- تناولت جذور الأسلوبية المعاصرة في الموروث البلاغي والنحوي ورأيت أوضحها ما تناولـــه علماء إعجاز القرآن في دفاعهم عن لغة القرآن وردّ المطاعن التي وجهها أعداء الإسلام لإعجاز القرآن.

- إن التطبيق الاسلوبي ينبغي أن يبنى على جوهر العربية وأسرار نظامها اللغوي ذلك إن نظامها هو اسلوبها الذي يميزها عن سائر اللغات الأخرى، ومن غير ربط التحليل الاســـلوبي بالنظـــام الكلي للعربية ، تعاني الدراسة للاسلوبية وتطبيقها على النص القرآني نقصاً كبيراً.

الهوامش:

---

(1) دليل الناقد الادبي 19.

2 - طبعة عالم الكتب ضمن مشروع مكتبة الاسرة 2002.

(1) علم الاسلوب ، فضل 7.

(2) مفهومات في بنية النص 3-4 ، والنقد البنيوي الحديث بين لبنان وأوربا 383 وما بعدها ، والمصطلحات الأدبية الحديثة 31 وما بعدها.

(4) الاسلوب والاسلوبية 10.

(5) المعجم الادبي 21.

(1) علو الأسلوب 11.

(2) الأسلوبية والأسلوب 12.

(3) الاسلوبية / جيرو 47.

(4) قضايا الحداثة 5.

(5) علم الاسلوب مبادؤه واجراءاته 94.

[1] علم الاسلوب مبادؤه واجراءاته 89 ، والنصّ والاسلوبية بين النظرية والتطبيق 36.

[2] الاسلوبية والاسلوب ، المسدي 20.

[3] مفهومات في بنية النص 69.

[4] البلاغة والاسلوبية 138.

[5] المصدر نفسه 189.

[1] قضايا الحداثة 21-22.

[2] الاسلوب بين التراث البلاغي العربي والاسلوبية الحداثية 5.

[3] نفسه 7 .

[1] الاسلوبية وتحليل الخطاب 60.

[2] الاسلوبية والبيان العربي 21.

[3] النحو والدلالة 173.

[4] في النقد اللساني 169.

[5] معجم المصطلحات الادبية المعاصرة 115 ، 21 والنحو والدلالة 180 وحيوية اللغة 317.

[6] النقد اللساني 235.

[1] ينظر: الاسلوبية والبيان العربي 27، واللغة والاسلوب 15-18 والبلاغة في ضوء الاسلوبية 8-9 ، وجدلية الافراد والتركيب 153 ، في المصطلح النقدي 125.

[2] اللغة والابداع 19.

[3] البلاغة في ضوء الاسلوبية ونظرية السياق 7.

[4] اللغة والاسلوب 15.

[1] البيان والتبيين 1/ 62 والمفتاح 90.

[2] اللغة والابداع 8.

[3] علم لغة النص 20-21، 43 والاسلوبية ، جيرو 27-30 وجدلية الافراد والتركيب5.

[4] الاسلوب بين التراث البلاغي العربي والاسلوبية الحداثية4، وجدلية الافراد والتركيب 83 .

[5] الاسلوبية والبيان العربي 27،8،5، والبلاغة في ضوء الاسلوبية 5-7 ومحاضرات في تاريخ النقد عند العرب 285-351.

[6] قضايا الحداثة عند عبد القاهر 2 ، 7 ، والأبعاد الابداعية في منهج عبد القاهر 11.

[7] التركيب اللغوي للادب ص (د).

[8] اللغة والاسلوب 15-18.

(1) ينظر: تأويل مشكل القرآن 10 ، 19 وبيان اعجاز القرآن ، الخطابي 60 واعجاز القرآن للباقلاني 298.

[2] مقدمة تفسير الكشاف 23.

[3] ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن، الجويني 77.

[4] قضايا الحداثة 31.

[5] دليل الناقد الادبي 19.

[6] المصدر نفسه 21.

[7] المصدر نفسه 19.

[1] مدخل الى الأدب الإسلامي ، د. نجيب الكيلاني 7.

[1] مباحث في علوم القرآن 385.

[3] البناء الفني في سورة مريم ، د. حامد عبد الهادي حسين 54.

[3] المصدر نفسه 68 ، 86.

[4] دليل الناقد الأدبي 148.

[1] بحوث بلاغية 132.

[2] البلاغة العربية في ضوء الاسلوبية ، والبلاغة بين المنطق والتذوق ، ضمن كتاب (بحوث بلاغية) ، مطلـــوب 132.

[3] ينظر: في النقد اللساني 221.

[4] ص 290 وعلم الدلالة ، لوشن 88.

[5] أثر اللسانيات في النقد العربي 3 وعلم الدلالة ، لوشن 88.

[1] الاسلوبية والاسلوب 80.

[2] نحو: خمسون الف خطأ في الكتاب المقدس ، احمد ديدات.

[3] الأصول 350 وتنظر تفصيلات اخرى ص 139 ، 143-145 واللغة العربية مبناها ومعناهـــا 190-230، واللغة العربية والحداثة 135-138 والبيان في روائع القرآن 229/1.

[58] - طبعة عالم الكتب ضمن مشروع مكتبة الاسرة 2002.

[59] - البيان 1/ 124.

[60] - نفسه 1/ 125-126.

[3] البيان في روائع القرآن 1/ 255 ، 2/ 97.

[4] البيان في روائع القرآن 1/ 257.

[6] القاعدة النحوية في ضوء تقييدها بأمن اللبس ص1.(بحث)

[3] في عوالم القرآن 84.